



# الحياة

١١

- ❖ من الأصحاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصطفى مهذباً
- ❖ ولادة محمودة وطفولة مكفولة
- ❖ الشبيبة الكريمة للنبي (ص)
- ❖ في غار حراء
- ❖ العجزة النبوية : فاتحة عصر جديد
- ❖ في المدينة المنورة
- ❖ وداع الرسول صلى الله عليه وسلم

## من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً

محمد بابو المسليار الفيضي<sup>١</sup>

قال الله تعالى في قرآنه المجيد: ( الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلِبُ فِي السَّاجِدِينَ ) صدق الله العلي العظيم.

وصدق الإمام البوصيري رحمه الله حين يقول في همزيته:

نسب تحسب العلا بحلاة      قلدتها نجومها الجوزاء  
حبذا عقد سؤدد وفخار      أنت فيه اليتيمة العصماء

نعم! هذا النسب الشريف نسب لا شك في أنه أشرف وأعظم نسب عرف في التاريخ البشري! نسب يتلألاً ويضيء بنجوم زاهرات، ومن بينها نجم مخلد مدى الدهر أضاء مشارق الأرض ومغاربها ولا يزال يضيء ويعطر الأكوان بأسرها ويستضيء به في السموات والأرض!! صلى الله عليه وعلى آله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

يقول صلى الله عليه وسلم:

"أنا أنفسمك نسبا وصهرا وحسبا لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً لا تنتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما فأنا خيركم نفسا وخيركم أبا".

وصدق الحافظ ابن حجر رحمه الله حيث يقول:

نبي الهدى المختار من آل هاشم      فعن فخرهم فليقصر المتناول  
تنقل في أصلاب قوم تشرفوا      به مثل ما للبدن تلك المنازل!

فلنبداً الآن بذكر ذلك النسب الشريف، يقول ابن سعد رحمه الله في الطبقات الكبرى في باب ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبرنا هشام بن محمد السائب بن بشر الكلبي قال: علمني أبي وأنا غلام نسب النبي صلى الله عليه وسلم "محمد الطيب المبارك ابن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شيببة الحمد - بن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قصي - واسمه زيد - بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وإلى فهر جماع قريش، وما كان فوق فهر فليس يقال له قريش، يقال له كنانة، وهو فهر بن مالك بن النضر - واسمه قيس - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسمه عمرو - بن إلياس بن

<sup>١</sup> . أمين جمعية العلماء لعموم كيرالا.

مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وهذه السلسلة الطاهرة تمتد إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ومنه إلى أبي البشر آدم عليه السلام. ولكن النسب الذي بين عدنان وإسماعيل، وبينه وبين آدم مختلف في صحته لاضطراب رواياته واختلاف ضبطه. ولم يضبط ولم يثبت كما ثبت إلى عدنان. يقول ابن معد رحمه الله في "طبقاته": "فالأمر عندنا على الانتهاء إلى معد بن عدنان ثم الإمساك عما وراء ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وكان من دأب النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يجاوز في نسبه معد بن عدنان، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد ثم يمسك ويقول: كذب النسابون، قال الله عزوجل "وقرونا بين ذلك كثيرا" (طبقات ابن معد) وهؤلاء الأجداد ومن فوقهم إلى إسماعيل بن إبراهيم ثم من فوقهم إلى أبي البشر آدم عليه السلام كلهم كانوا أشرف قومهم ووجهاء قرنهم، وليس فيهم أحد من مهملات القوم ولا سفلتهم. يرشدك إلى هذه الحقيقة حديث أبي نعم وغيره:

"لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا لا تنتسب شعبتان إلا كنت في خيرهما!"

### وتقلبك في الساجدين

تنقل أحمد نورا عظيما  
تقلب فيهم قرنا فقرنا  
تلاأ في جباه الساجدين  
إلى أن جاء خير المرسلينا

هنا بحث هام عن آباءه صلى الله عليه وسلم، وذلك هل كان فيهم من زلت قدمه عن طريق الحنيفية؟ فالجواب الذي لا جواب غيره والحق الذي تلقى الله تعالى عليه أن كلهم كانوا في الملة الحنيفية السمحاء، كيف لا؟ وقد قال الله تعالى: "الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين" يقول ابن عباس في تفسيره: "أي تقلبك من أصلاب طاهرة من أب بعد أب إلى أن جعلك نبيا."

وتتميما للفائدة إليك فقرة مما نقل الإمام الجليل السيوطي رحمه الله في كتابه "الدرج المنيفة في الآباء الشريفة" نقلا عن الإمام الكبير الرازي رحمه الله:

"إن آباء النبي صلى الله عليه وسلم إلى آدم على التوحيد لم يكن منهم مشرك. قال: ومما يدل على أن آباء محمد صلى الله عليه وسلم ما كانوا مشركين قوله صلى الله عليه وسلم لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، وقال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) فوجب أن لا يكون أحد من أجداده صلى الله عليه وسلم مشركا. قال: ومن ذلك قوله تعالى:

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ) معناه أنه كان ينقل نوره من ساجد إلى ساجد ... والآية دالة على أن جميع آباء محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين، وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم ما كان من الكافرين وأقصى ما في الباب أن نحمل قوله 'وتقلبك في الساجدين' على وجوه أخرى وإذا وردت الروايات بالكل ولا منافاة بينها وجب حمل الآية على الكل، وبذلك يثبت أن والد إبراهيم ما كان حين عبدة الأوثان وأن أزر لم يكن والده بل كان عمه.

ثم يسرد الإمام السيوطي في كتابه ما يثبت هذه الحقيقة من الآيات والأحاديث ويقول: فوجب قطعاً أن لا يكون فيهم مشرك ليكونوا خير أهل الأرض كلهم في قرنه.

### أبو إبراهيم عليه السلام

فأبو إبراهيم عليه السلام الذي يذكر الله في قصته "إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر... الآية فالصحيح أن هذا الذي عبد الأصنام ليس بأبي إبراهيم صلباً، كما يقول الإمام السيوطي في الكتاب الذي مر ذكره:

"وأما أزر فالأرجح كما قال الرازي أنه عم إبراهيم لا أبوه، وقد سبقه إلى ذلك جماعة من السلف ورويت بالأسانيد عن ابن عباس ومجاهد وابن جرير والسدي، قالوا: ليس أزر أبا إبراهيم إنما هو إبراهيم بن تارخ...."

وهناك أيضاً شبهات أثرت حول نجاة أبويه عبد الله وأمنة رضي الله عنهما. وقد صنف العلماء حول هذه المسألة مصنفات كثيرة، ومن أجلهم الإمام الجليل السيوطي رحمه الله، وقد بحث في آباء النبي صلى الله عليه وسلم وأمهاته وأثبت أن جميعهم كانوا من الموحدين الفائزين.

ومما قال الحافظ شمس الدين الدمشقي:

على فضل وكان به رؤوفا

لإيمان به فضلا لطيفا

وإن كان الحديث به ضعيفا

حبا الله النبي مزيد فضل

فأحيا أمه وكذا أبوه

فسلم فالقديم بذا قدير

وقد مال إلى هذا السبيل من إحياء أبويه للإيمان به طائفة كثيرة من الأئمة وحفاظ الحديث – والله سبحانه وتعالى أعلم.



## ولادة محمودة وطفولة مكفولة

بسم شمس الدين الفيضي الفلاري<sup>١</sup>

نرخل في شهر الربيع، ربيع الأمة والملة، بل ربيع الإنسانية جمعاء. بزغ الهلال منحيا كل ضلال وتلال، مترعا كل جلال ونوال، في آفاق العالم مشرقا ومغربا. لقد سعد هذا الشهر بمولد النبي الكريم، أرسل نعمة عظمى ومنة أسمى للكون قلبا وقالبا.

### ولادة ليس لها مثيل

ولد ذلك المولود الذي جاء ذكره في الكتب القديمة، من أطيب صلب وأفخر نسب، شهير بين العرب والعجم. طاب مبدأه ومنتهاه، زان مولده ومنبعه أن كان عنصره منزها منقيا،

أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتدئ منه ومختتم

أبوه عبد الله بن عبد المطلب كان شريفا وجيها، وأمه أمنة بنت وهب كانت أشرف نساء قريش، تزوجها عبد الله في ثماني عشرة سنة مضت من عمره، ومات في عمر يناهز عشرين قبل أن تضع زوجته ولدها، ودفن في المدينة عند أخواله.

حملته أمه من غير أن يلّم بها ألم، ويلج بها هلع، وضعته فإذا هو ساجد، كما في رواية عنها، أنها قالت: لما خرج من بطني نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه كالمتمضرع المبتهل. وقال الشيخ إبراهيم الباجوري في حاشية للبردة الشريفة: "ومن آيات مولده (ص) ما ذكره عن أمه أنها قالت: لقد أخذني الطلق، وإني وحيدة في المنزل، وعبد المطلب في طوافه يوم الاثنين، فسمعت وجبة هالنتني، ورأيت كأن جناح طير أبيض مسح فؤادي، فذهب عني كل وجع أجده، وكنت عطشى فإذا بشربة بيضاء فشربتها فأصابني نور عال" (الباجوري ٣٤). وكانت ولادته في دار أبي طالب ومختونا مكحولا. محياه يلوح كما تلوح الشمس بل هي تستحيي أمامه وتقر بجلال جماليته.

<sup>١</sup>. محاضر، المجمع الإسلامي لتذكاري الشيخ أبي بكر المسليار الكوتومالي. ملابرم.

وما لبث أن تقع عند مولده أحداث منذرة ببؤس عبدة الشياطين، ومدهشة بخلل عروش فحش وحدة السلاطين، نار تخدم ونهر يجمد، وإيوان ينهدم وإبواء ينعدم، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا. وحقتهم العشواء والظلماء وأزيلوا. ما لهم صاروا حيارى!. مما أصابهم كانوا سكارى!! يوم ذهل كل مسترق من السماء عما يسترق، وقفل كل مبطل عما يبطل. وذعرت الجنة هاتفة منهزمة وذهبت المردة هاربة مزدحمة. وتحررت ثوية جارية أبي لهب فرحا بهذا الولد الذي أبي اللهب. واعترف المنصفون بحقيقة البال، وانصرف المخلصون عن خليعة الوبال. وانقلب العالم وعاد من جديد، وأذن بقدم نهار جديد، وليل بهيج. فما أصدق ما قاله الشاعر العربي أحمد شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

### صبا النبي (ص):

لم ير هذا المولد أباه، ولم يتفق لأمه أن تعيش بعد ولادته طويلا إلا سنا من السنين. ماتت بأبواء أثناء زيارته لبعض الأقرباء، تحمل معها ابنها الأمين، وتزور قبر أبيه الدفين. فصار يتيما من الأب والأم، فتنقل كفالته من أمه إلى جده، فمنه إلى عمه أبي طالب. فجدير بالذكر أنه لم تمسه شوائب اليتيم ولم تشمه رذائل الشيم.

وقفة ملحوظة أمام هذه المرحلة من حياته المثلى، تسوقنا إلى تأملات هامة، بالنسبة إلى تلك الحالة والمناخ الملوث. لأن الصبي يتأثر فيه شيعته وبيئته، وتتجذبه أسرته وعشيرته. والجاهلية قد نيطت بكل مجال الحياة، والجالية قد علقت بكل ما هو فوات. وإن هذا المولود منزه عن كل ما يشين، مرحب بكل ما يزين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن المعلوم أن كل واحد يتجاوز مراحل حياته متفاوتة طبيعته ومنتقاة خليقته، وإن بلغوا من بعد أوج الشهرة وذريها وأرج المناصب وعلاها، متوجين بتحيات البطالة متوجهين إلى فيضان الرياضة. ولكثير منهم عوامل لازدهارهم في دروب حياتهم، مثل العلوم والترجمة والبيئة وما إلى ذلك. وما هو في الحسب فحسب. والتربية من قبل الوالدين ركن هام في تكوين الجو الخلقى في البنين. وهي أيضا تتضلع بدور مهم في إنشاء جيل جليل واع. وهذا الركن متفق في حبيبنا (ص). وطبقا لهذه الأوضاع لم يكن صلى الله عليه وسلم متبع لما هو هوى ( وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ) بل أحاط بكل مكارم الأخلاق والشيم، وأقام كل بصمات

المروءة وقسمات الرجولة. وهذا برهان يتجلى منه أن صباه مصون بسمو قدره منوط بعلو شأنه، لأن كان الله أدبه وحببه، كما كان مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: " أدبني ربي فأحسن تأديبي " والإمام البوصيري أجاد بما قال:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة  
في الجاهلية والتأديب في اليتيم

### في قسمة حليلة السعدية:

اعتادت العرب أن تسترضع لأولادهم نسوة من المرضعات على أجور تعطيها عند كمال ما يرام منهن. وكانت المرضعات من البوادي، والبادية لفصاحة لهجتها وعذوبة لغتها تمتاز من المدن، لأنه لا يوجد لها لغة خاصة بها، لأن بها أصحاب لهجات مختلفة وأشخاص سمات متنوعة. فلا يكاد الأطفال يتكلمون في المدن باللغة الفصحى، ولا يتمتعون بهدوء السجية المثلى، فأثر العرب البوادي لهذا المرام.

ولقد سمعت السعدية بقسمتها العظمى، أرادت أن تؤثر طفلا له أبوان، وأبى الله أن يورث لها مولودا ما له أب (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) أبته أولا لما رأته يتيما، ترجو من أبي الصبي كما كانت المرضعات يقلن: إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي. ولكن إرادة الله فوق كل إرادة ( وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ) اغتنمت ثمان نسوة بارضاعهن هذا المولود. ومن أولهن ثويبة جارية أبي لهب، هي التي أخبرت سيدها بأن أمنة حرمة أخيه وضعت حملها، وجاء الولد ذكرا. فلاح وجهه فرحا وارتياحا، ولم يحتفل بهذه المسرة إلا بعثق جاريته التي أتت بالخبر. والحقيقة أنه ألد عدو لهذا المولود الذي سيقوم بأقوى حجة على تباب عمه هذا ويعارضه بكل ما يبرهن عليه.

علمت حليلة بأن لابنها لسانا، عم بيتها بأنواع من البركات، وكانت عائلتها من قبل تعاني من مضض الجوع وحراقة العطش. وما لبث أن صارت أغنامها شبعاً لُبْنَا وناقته حافلا. ما زالت هذه الأسرة تستقبل أنواع العطايات مدة بقاء هذا المولود فيهم. والمدة تربو على أربع سنوات.

### رعاية الغنم ووقاية الصدر:

امتاز هذا المولود من بين الولدان منذ نعومة أظفاره. رعى الغنم في البادية مع أخيه من الرضاعة. وقد كان يرعاه على قراريط لأهل مكة، كما قال صلى الله عليه وسلم: ما من نبي

إلا وقد رعى الغنم. قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا. لأنه كان يأكل من نتيجة عمله ويقنع بالقوت. وكان مقتضى هذه الرعاية تعليمه رعاية القوم وتمكينه من الاضطبار.

وبينما كان يركع غنمه مع أخيه خلف بيته ذات يوم، فوجئ بأن يشق صدره ويخرج منه حظ الشيطان كما أخبر به عن نفسه: فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض مملوءة ثلجا ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقا فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه... كان هذا التطهير مرتين، الأولى: في حال طفولته هذه، والثانية: في حال الاكتهال وبعد ما نبئ، وعندما أراد الله أن يرفعه إلى الحضرة المقدسة التي لا يسعى إليها إلا المقدس" (سيرة بن هشام ١/١٥٣)

### يستسقى الغمام ويتغشى الغلام:

لما تورطت العرب في القحط، وجفت مياههم وقلت أرزاقهم، استغاثوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فلم يجب هؤلاء شيئا، فاتفقوا بالعرض على أبي طالب، فأسرع بابنه محمد إلى الكعبة، فطافها به واستسقى به الغمام واستخصب الأنام. فانفجر الوادي وأخصب البادي، وأنتى كل على هذا الغلام الهادي. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يتمثل ببيت أبي طالب الذي أنشده: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأرامل

وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما حدث عنه: لقد رأيتني في غلمان قریش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لکمني لاکم ما أراه لکمة وجیعة. ثم قال: شد عليك إزارك. قال: فأخذته وشدته علي ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي. (ابن هشام ١/١٦٨)

### بحيرى بشهادة على نبأته صلى الله عليه وسلم:

عندما وصلت الكفالة إلى عمه أبي طالب كان كل شأنه مع عمه، وكان عليه شفيقا وكان معدما، فأثرى وزاد ماله بيدي هذا الغلام، لا يعتني به وكان ذا قناعة متجلبا إلى الفيوض الربانية متتحيا عن العيوب النفسانية. ولما جاوز اثنتي عشرة من عمره على ما قال الطبري عزم عمه بالانطلاق إلى الشام للتجارة، فاستصحب الغلام فراقه وخرج به.



وسلكوا طريقهم المعتاد ونزلوا بصومعة بحيرى الراهب لأنه أعد لهم مائدة ودعاهم إليها بأسرهم. وقد اعتادوا أن يمروا بهذه الصومعة وما اطلع إليهم صاحبها قط. فاستغربوا من الفعال وحضروها بحذافيرهم إلا هذا الغلام. نجمل الواقعة ونقف على الحاصل: إن بحيرى لم يعد القرى إلا ليختبر أن هذا الغلام هل هو النبي الموعود في كتبهم، فوجده في الحالة التي اختبرها وقررها بأمارات، مثل سير الغلام مظلاً، وإنكار اللات والعزى وعدم حضور القرى. وبعدما تبين له أنه هو أوصى عمه أبا طالب بالرجوع إلى بلادهم لئلا تقتله اليهود وهم أحرص الناس على إعدام هذا الغلام لاستبقاء دينهم المعوج (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) فذعر أبو طالب ورجع به إلى مكة.

### النبي في الحرب:

ولما جاوز أربع عشرة سنة، اندلعت حرب بين قيس وقريش، انتهاكا لحرمة الأشهر الحرم. لذا اشتهرت بحرب الفجار. شهدها النبي صلى الله عليه وسلم منبلا على أعمامه أي رادا نبل عدوهم. وقال ابن اسحاق: هاجت حرب الفجار ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة.

أخيرا كانت هذه الولادة عاملا لخلوص الإنسانية من دياجير الظلام وسلاسل الأنام ومن مركز الدعارة وأوكار الخسارة. وما الخلوص لهذه الأمة الحديثة التي تتسكع في الجهالة العمياء والثقافة الظلماء إلا في صاحب هذه الولادة، فتمكن من مجابهة العقبات وتذليلها بل والقضاء عليها، لأنه مصدر كل انقلاب وارتقاء. ويجدر بنا أن نضيف في الختام ما قاله العلامة الندوي في كتابه "الطريق إلى المدينة المنورة": "ولا نشعر في غالب الأحيان أن مصدر هذا الانقلاب ومصدر هذه السعادة التي نتمتع بها جميعا هو هذا الحادث السعيد الذي حدث في هذا اليوم ولادة محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم خاتم الرسل وإمام الكل ومنير السبل".



## الشبيبة الكريمة للنبي الكريم

﴿ حمزة الرحماني ﴾

يتميز فتوته ﷺ بميزاتها العديدة وبخصوصياتها العظيمة فضلا عن ذلك الزمان وبيئته، لأن الشباب هيجان الحياة ونشوتها اعتبارا من كل إنسان. والعصر الذي عاش فيه الرسول ﷺ كان زاخرا بالردائل وممتلئا بالفواحش بحيث لا يذم الناس ولا يعابون بالنشاطات الشنيعة والأخلاق الدنيئة أيما كانت.

هنا يتفرد شخصيته الكريمة بمستوى أعلى في سيرها وسلوكها في ظهيرة الحياة لا يوجد له مثيل في تاريخ العالم والإنسان، على الرغم من أنه نشأ وترعرع في مرارة اليتيم وحضانتها، ماكان له مرشد حفي يهدي إلى المحاسن العليا والمكارم الأسنى كالأب والأم. هذه الظروف والبيئات إذا أحاطت بشباب نشيط وانهمك في الفواحش والمنكرات لا يعاتب ولاينكر على صفة عامة، لأن النفس لأماره بالسوء. وعلى الرغم من هذه الخلفيات كلها بقيت شخصيته ﷺ نقية زكية عطرة في شبابه كما تزكى طفولته من قبل.

إن النبي ﷺ لم يتنج ولم يفر من المجتمع والقوم، ولم يكن رقما من الأرقام على هامش الأحداث والوقائع، بل كان يعيش وسطهم وخلالهم ويتعاقد ويتداول ويتداخل في شؤونهم كلها إيجابيا. وكان يقوم إماما وقائدا في حل مشكلاتهم وإنهاء قضاياهم ونزاعهم حتى يحكمه القوم كلهم، من بينهم أشرف قريش حينما تنازعوا في وضع الحجر الأسود مكانه عندما قاموا بإعادة بناء الكعبة المقدسة. وهكذا كانوا يعولون عليه ﷺ في جميع أمورهم. فقد كان النبي ﷺ محط أنظار مجتمعه وقد هفت إليه قلوب الناس جميعا. وقد قضى أيام شبابه أحيانا مشغلا بالتجارة، كان يتجر لخديجة (ر) ويرتحل لها إلى البلدان، لأنه كان أمينا صدوقا فريدا في مكة المكرمة.

أهم الوقائع في شبابه ﷺ .

١. حرب الفجار : هذه الحرب وقعت لما بلغت سنه ﷺ عشرين سنة. قد اندلعت هذه المناضلة بين قريش ومن معهم من كنانة وبين هوازن. سميت حرب الفجار بسبب

<sup>١</sup> . نائب عميد كلية الحسنات العربية، مامبوزا، كرواركوند، ملايرم.

ما استحل فيها من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب قديما وحديثا. شهد النبي ﷺ هذه الواقعة وساهم فيها حيويًا. فبالمساهمة في هذه الحرب اكتسب الرسول ﷺ الجرأة والشجاعة والإقدام التي كان أحوج إليها في مضمار دعوته، وتمرن على مواجهة الأزمات المعقدات منذ بكورة فتوته.

٢. حلف الفضول : كان حلف الفضول بعد رجوع قريش من حرب الفجار. تداعت قريش للحلف حينما ظلم واستعدي زبيدي بمكة، واستغاث أهلها عند الكعبة. فتح العهد في دار عبد الله بن جدعان أحد رؤساء قريش. وكان المتحالفون بني هاشم وبني المطلب ومن معهم، وتحالفوا بالله ليكوننّ يدا واحدة مع المظلوم الضعيف على الظالم القوي حتى يرد حقه.

٣. وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف مع أعمامه، وقال عنه بعد أن شرّفه الله بالرسالة "لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب لي به حمر النعم، لو دعيت به في الإسلام لأجبت". لأن هذا الحلف أتاح له ﷺ فرصة ثمينة تظهر اعترازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل ومقاومة الظلم.

٤. زواجه مع خديجة رضي الله عنها: كان زواجه ﷺ بخديجة (ر) حينما بلغ عمره خمسا وعشرين سنة . وذلك بعد ما رجع من الشام التي كانت رحلته إليها تاجرا لخديجة(ر). وفي هذه الرحلة التجارية نال الرسول ﷺ لمستأجرته بفوائد عظيمة بالنسبة إلى الأرباح التي نالتها من قبل. قد أعجبت خديجة أخلاقه الكريمة التي علمته من ميسرة خادمها الذي رافقه ﷺ في هذه الرحلة بالإضافة إلى ما حصلت عليها من الأرباح العجيبة.

إن حياته ﷺ مع خديجة وزواجه كانت أيضا نموذجا فاتقا ومثالا لا مثيل له. لأن شابا كاملا بلغت نشأته ذروتها وصحته غايتها لا يستعد غالبا أن ينكح امرأة أئمة دخلت سنها في الأربعين، مع أنه ﷺ كان مستحقا لأن يخطب أية امرأة ترتاح النفس إليها في مكة. ولكن الرسول ﷺ اختار لنفسه أئمة ذات أولاد، وعاش معها عيشة زوجية طيبة هنيئة. وقرت عينه بأولاده منها. ما تزوج النبي ﷺ معها زواجا غيرها.

هذه كلها أجوبة ناطقة على أغلوطات الأعداء في زواجه ﷺ مع خديجة. وعلى كل حال كانت حياته ﷺ في شببته فريدة وحيدة ينبثق منها الضياء وتلوح إلى نجابته وعظمته ﷺ.

## في غار حراء

## حمزة الباقوي الأدرشيري

كان محمد ﷺ يختلي ويعتزل عن الناس وعن شعاب مكة أياما. فلما دنى عمره من أربعين سنة حُبب إليه تلك العزلة والاختلاء عن الأهل وعن نبيه سيما شعاب مكة وعن ملامهها الوفيرة. وقد اختار لذلك غارا في قمة حراء - جبل في الشمال الغربي عن مكة ببعد خمسة كيلومترات من الجبال المشرفة عليها- مبتغيا فراغ ضميره عما سوى الله وبُعد بدنه المطهر عن اختلاط الناس وعاداتهم وتقاليدهم الفاسدة وسوء سيرهم وسلوكهم العديد، مع كونه محفوظا منذ أن كان في بطن أمه وقبل نعومة أظفاره بشرح الصدر وإزالة المكدرات الإنسانية بحيث لا يوجد أي مجال لتلك الخواطر السيئة في قلبه! وتربى في مدرسة ربانية وحماية إلهية عما يقع للمرء في الطفولة والمراهقة والكهولة وفيما بعد، استعدادا واستئناسا لما يتلقى ويتحمل فيما بعد من كلام الله المعجز (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا).

## استئناس غار حراء

(١) الاختلاط والعزلة والهدوء والوحدة والفراغ لكي يتحلى بالطاعات والعبادات المعروفة لديه من سالف الأنبياء كإبراهيم وإسماعيل وآدم وشيث ويونس ونوح ويعقوب وغيرهم:  
لآدم صبح والعشاء ليونس      وظهر لداود وعصر لنجلاه  
ومغرب ليعقوب كذا شرح مسند      لعبد كريم فاشكرن لفضله

(٢) أنه ﷺ يقتدر أن يرى الكعبة بدون ما فيها وما عندها من الأصنام وطواف القوم عريانيين، وأن يركز قلبه في وحدة الله وشعاره بدون أن يخلله شيء يشغله.

(٣) أن للنفوس الإنسانية لمة شر، فلا يقطع شرها إلا دواء العزلة والندامة فيما مضى والتحلية بعد التخلية لما يقدم من العمر حتى الأجل وإن كان محفوظا عنه.

**أيام الخلوة :** وكان ﷺ يخلو فيه الليالي والأيام ذوات العدد، فتارة عشرة أيام وتارة أكثر من شهر، ثم يعود لبيته فلا يكاد يمكث قليلا حتى يتزود لخلوة أخرى. ولما دخل عمره في أربعين حُبب إليه ذلك أكثر مما كان قبل.

**البعثة وبداية الوحي:** وحينما كان يخلو في الغار مرة وعمره آنذاك أربعون سنة قمرية وستة أشهر وثمانية أيام الموافق لـ ٦/٨/٦١٠م، وكان يتربص إلى مولاه خالقه ورازقه وموجده وربّه بقلبه وقاله في وحدته المملوءة بأتم الهدوء وأوفر النور وأزكى الفراغ متقرباً ومقترباً كأنه مستعد ومتهيئ لحمل تلك الأمانة، فهذا هو ذا أمين السماء الملك المقرب حامل الوحي ينزل إليه بهذا الحوار الذي يرويه عن نفسه قائلاً: فقال "اقرأ" فقلت "ما أنا بقارئ" فغطني أي ضمني بقوة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني وقال "اقرأ" قلت "ما أنا بقارئ" فغطني الثانية، ثم قال "اقرأ" قلت "ما أنا بقارئ" فغطني الثالثة وقال "اقرأ" قلت "وما أقرأ؟" فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم\*.

**الفرع والروع والرجوع:** فرجع ﷺ فرجعاً إلى بيته يرجف فؤاده من هول الحدث، ودخل على زوجته خديجة رضي الله عنها، قائلاً "زملوني! زملوني!" -أي غطوني- فزملته حتى ذهب عنه الخوف والفرع، وأخبر خديجة بما حدث في الغار وقال: لقد خشيت على نفسي. فطمأنته قائلة " كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك تصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر." فذهبت به إلى ابن عمها.

**عند ورقة بن نوفل:** فلما وصلت به ﷺ عند ورقة بن نوفل استفسر عما وقع له ﷺ في الغار فأخبرهما أنه شبيه بالناموس الذي كان ينزل على موسى عليه السلام . وإن ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى كان رجلاً تنصر في الجاهلية، وكان يجيد العبرية حديثاً وكتابة، وكان شيخاً كبيراً قد عمي وقتئذ. فلما سمع هذه القصة بأكملها منه ﷺ فقال: هذا الناموس -أي جبريل- يا ليتني جذعا ( شاباً قويا) ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال ﷺ : أو مخرجي هم ؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي.

**الرؤيا والإلهامات:** هذا اللقاء كان أوثق وأعمق وأخوف من كل الرؤيا التي كان يراها ﷺ وتقع كفلق الصبح كيوسف عليه السلام والإلهامات السابقة له ﷺ التي تطرق قلبه الشفاف، يختلف عنها كثيراً لأنه وحي ولقاء مباشر لا خواطر تسنح القلب.

**اتصلت الأرض والسماء:** وكانت تلك اللحظة النورانية لحظة الحسم في حقه ﷺ وأن له أنه المدخر والمشرف والمختار لحمل كلمة السماء ولاتصال السماء بالأرض وأن هذه الآونة

وقته وبدايته هو الذي بشرت به الأنبياء والكتب والصحف السابقة، وأنه من أعظم الأحداث المؤرخة المفصلية التي مرّت بالبشرية. وحقيقته أن الله قد تكرم في عليائه فأراد أن يرحم البشرية فكرّمها باختيار أشرفها نسبا وأصدقها أمانة وأشهرها صدقا ووفاء وحقا وهدى ليكون ملتقى نوره الإلهي ومستودع حكمته ومهبط وحيه وأسمى مظاهر رحمته للعالم.

**لما ذا لم يبدأ بالفاتحة وبدأ بـ"اقرأ" :** وقد بدأت رسالة الرحمة العالمية بكلمة "اقرأ" ولم تبدأ بالفاتحة أم القرآن أو بأمر بالصلاة والصيام والحج وغير ذلك. وما ذلك إلا لتؤكد على مبدأ أساس قامت عليه رسالة محمد ﷺ وهو أنها رسالة علم وحضارة وثقافة متنوعة يحتاج إلى ذلك المرأ كلاً والعالم. وليست ديناً كهنوتياً ولا تكريسيا يعتني بالجانب التعبدى فقط؛ بل رسالة ارتكزت على العلوم وأشارت إلى الفنون والمواد العديدة المحتاجة لبقاء الحياة ولتكون الحياة في أرقى منزلها وأسمى وظيفتها المختارة ولتهوي وترشد الثقلين إلى أعلى حياة دائمة أخروية في ناحية الطاعة والعبادة.

العودة إلى الإنسانية

ومع ذلكم إن محمداً ﷺ قد بعث لينشئ عالماً حضارياً وأمة مثقفة خير أمة يعيد الإنسان إلى الإنسانية بعد أن كاد يفقدها، ويؤهله للخلافة الحقة في الأرض. لذا بدأت بـ"اقرأ" واختارت لحمل هذه المهمة رجلاً لا يعرف القراءة والكتابة ليستيقن الناس أن هذه الرسالة سماوية لا مخترعة مكتوبة من عنده ﷺ بل محال أن يقع ذلك منه في حق من يعرفه، ومع بالغ أمانته وأصدق مقاله.

إن الأمي الأمين لن يكون مخترعاً لهذا الدين الحضاري وإن هو إلا مبلغ عن الله وناقل عطايه السماوية إلى الأرض وقاطنيها وأن هذه الرسالة تشير إلى جميع الفنون والعلوم المحتاجة لتواكب حياة الإنسان كلا والكاننات الحية فوق هذا الكوكب الأرضي ولنجاتها وحسن حياتها الأخروية الدائمة - خاصة لخلودها وبقائها .

--- ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار ---



## الهجرة النبوية : فاتحة عصر جديد

مصطفى محمد الوافي<sup>١</sup>

إن حادث الهجرة النبوية ليثير فينا كل عام ذكريات جميلة و ينقلنا إلى الماضي مئات السنين لنرى و نفهم ما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم و صحبه رضوان الله عليهم من معارضات و اضطهادات تفنن فيها المشركون و سلكوا فيها كل السبل لعرقلة مسيرة الدعوة الإسلامية الشاملة و هي ماضية في طريقها سلاح أبطالها إيمان قوي و عزم صادق و صبر جميل! ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن أظهر حدث في الإسلام منذ بعثة النبي ﷺ حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى هو حادث الهجرة الذي غير مجرى التاريخ. فقد كان مرحلة انتقال من أرض عبدة فيها الأصنام و عذب فيها الأبرياء و شربت فيها الخمر إلى أرض سطع فيها شمس الإسلام و ظهر فيها نوره الوضاء.

إنها لم تكن "وليدة صدفة" و لكنها أمر عظيم علم بها و أيقنها الرسول أيام البعثة نفسها كما يبدو ذلك جليا من قول ورقة بن نوفل – ابن عم خديجة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم- له " ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ! قال نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي " <sup>٢</sup> وقد وصف الله سبحانه يوم الهجرة يوم انتصار حين قال " إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار " <sup>٣</sup>

### طلائع الهجرة النبوية

إن الرسول ﷺ عندما علم أن دعوته بمكة عديمة الجدوى مع قوم صم بكم وأن نشاطاته معهم غير مثمرة وأن هؤلاء لا يزيدون إلا عدوانا و عنادا، لجأ إلى وسيلة أخرى، وهي التعرف على القبائل الأجنبية في موسم الحج أملا في الحصول على أذان سامعة وقلوب

<sup>١</sup> محاضر، مركز التربية الإسلامية، ولانجيري، ملايرم.

<sup>٢</sup> صحيح البخاري – كتاب التفسير و تعبير الرؤيا

<sup>٣</sup> سورة التوبة ٤٠

واعية، ولكنه كلما قام و قال " أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب و تذلل لكم العجم وإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة " قام أبو لهب وراءه وقال " لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب " فيردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد و يؤذونه<sup>١</sup> وفي العام الحادي عشر للبعثة المباركة و بعد أن ذاق مر الذل لله مرارا سنج الله له فرصة عرض على رهط من الخزرج من أهل يثرب فوجد فيهم قلوبا واعية و عقولا صافية، وكان ذلك فاتحة عصر جديد ! فلم يلبث أن يرجع هؤلاء إلى بلادهم و ينتشر الإسلام بينهم، ثم تتابعت وفودهم إلى الرسول و قاموا بيباعونه على عبادة الله و ترك الأوثان و على الحماية والنصرة إلى أن اطمان رسول الله بهم وأمر أصحابه بالهجرة إليهم و هم ينتظرون ذلك على أحر من الجمر ليجدوا منزلا يعبدون الله فيه آمنين مطمئنين . فقد عاشوا في مكة و هم يعانون أشد عناء و يعذبون أشد تعذيب و ينكل بهم أمر تنكيل.

وفي هذه الحالة أيضا سعت قريش بثتى الطرق والوسائل إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة و إثارة المشاكل أمام المهاجرين، فمرة بحجز أموالهم و منعهم من حملها، و مرة بحجز زوجاتهم و أطفالهم، و أخرى بالاحتيال على إعادتهم إلى مكة. و لكن شيئا من ذلك لم يعق موكب الهجرة. فالمهاجرون على أتم استعداد للانخلاع عن أموالهم و أهلهم تلبية لداعي الإيمان لما علموا أن فساد العقيدة هو الهلاك بعينه.

### الرسول المهاجر:

دبرت قريش حين علمت بهذه التطورات "المخيفة" في مسير الدعوة مؤامرة دنيئة لمقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاركها إبليس فيها و حددت ساعة التنفيذ وأدواته و طريقه. وكان ذلك أن تأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا ثم يضرب هؤلاء الشبان جميعا رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ضربة رجل واحد حتى لا يتمكن لبني عبد مناف من القصاص أو الحرب عليهم و يرضوا بالدية<sup>٢</sup>

ولكن الله يعصم رسوله من الناس فنزل جبريل عليه السلام وأخبر الرسول بمؤامرة قريش و أذن الله له في الخروج و حدد له وقت الخروج قائلا " لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي

<sup>١</sup> الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٠٠، ٢٠١ و فقه السيرة النبوية للدكتور سعيد رمضان البوطي ص ١١٥  
<sup>٢</sup> الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص ١٤٥ السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٠



كنت تبيت عليه " <sup>١</sup> وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فكر من قبل في الهجرة و أعد لها عدتها.

ففي الليلة الموعودة ليلة السابع والعشرين من صفر الخير من العام الثالث عشر للبعثة المباركة - تلك الليلة التي حاصرت فيها قريش بيته الشريف حصارا محكما للقضاء عليه والتخلص من "فتنه" - ها هو رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ينادي عليا رضي الله عنه و يوكله في أداء الودائع التي كانت عنده <sup>٢</sup> ( يا للعجب الذين يقولون إنه مجنون أو ساحر أو كاذب أو صابئ لم يجدوا أحدا دونه في حفظ ودائعهم وأماناتهم ) كما طلب منه أن ينام تلك الليلة على فراشه الذي كان ينام فيه، ثم يخرج و يخترق صفوف المحاصرين و يأخذ حفنة من البطحاء ثم يرميها نحوهم وهو يتلو قول الله " و جعلنا من بين أيديهم سدا و من خلفهم سدا " فأخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، ثم يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم بأبي بكر رضي الله عنه في بيته ثم يخرج من الباب الخلفي ليصلا إلى غار ثور في اتجاه اليمن <sup>٣</sup>.

فلما تبين لقريش أن الرسول قد خرج على حين غفلة منهم و علموا أن الذي ينام على فراشه هو علي كرم الله وجهه سقط في أيديهم و جن جنونهم فوضعوا على جميع الطرق النافذة من مكة مراقبين و أعلنوا مكافأة ضخمة لمن يعيد الرسول و صاحبه حينين أو ميتين كائنا من كان. <sup>٤</sup>

أخذ الشباب القرشيون يبحثون عنهما في كل واد و شعب وفي كل مكان وطريق. ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل. يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم فقلت يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا. قال : اسكت يا أبا بكر ! اثنان الله ثالثهما " <sup>٥</sup> حدثت معجزة ! فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه و بينهم إلا خطوات معدودة ! و نسجت يد العناية الإلهية خيوط الأمان والحفظ للرسول و صاحبه !

<sup>١</sup> السير النبوية لابن هشام ١/ ٤٨٢ ، الرحيق المختوم ص ١٤٦

<sup>٢</sup> فقه السيرة النبوية للبوطي ١٣٨

<sup>٣</sup> ابن هشام ١/ ٤٨٣ ، الرحيق المختوم ص ١٤٨

<sup>٤</sup> الرحيق المختوم ص ١٥٠

<sup>٥</sup> صحيح البخاري ١/ ٥١٦ ، الرحيق المختوم ص ١٥٠

**وصول الرسول إلى المدينة :**

بعد مرور ثلاثة أيام في الغار و بعد أن هدأت ضجيج الطلب أتى عبد الله بن أريقط - رجل كافر على دين قومه اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى غار ثور دليلاً على الطريق إلى المدينة- ومعه راحلان أحدهما أبو بكر وسلك بهما طريقاً غير مطروق من أسفل مكة !

كان أهل المدينة في هذه الساعة خزرجهم وأوسهم رجالهم ونسأؤهم شيوخهم وشبابهم فتيانهم وفتياتهم من حين أن علموا بهجرة الرسول و صاحبه إليهم يخرجون كل يوم إلى الحرة حتى يردهم حر الظهيرة إلى أن تلقوا ذلك الخبر السار بوصول رسول الرحمة إلى ساحتهم . هكذا وصل رسول الإسلام إلى الأرض التي أراد الله بأهلها الخير، وبها أن يجعلها أول دار للإسلام ، والأنصار محيطون به متقلدين سيوفهم ، والصبيان والولائد ينشدن أناشيد فرح وحبور ، والطرق والبيوت ترتج بأصوات التحميد والتقدیس . فما مرت راحلته ببيت من بيوت الأنصار إلا وتضرع أهله للرسول أن ينزل به و يقيم لديه و إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة<sup>١</sup>

هناك بدأ رسول الإسلام بناء مجتمع جديد بين قوم يحبهم و يحبونه و يؤثرونه و من معه من المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

**دروس و عبر من الهجرة المباركة :**

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم واشتغاله بأمورها تذكرنا بموقف المؤمن الحقيقي حين يبائس الأمور، فإنه رغماً من كونه على عصمة من الله وأنه تعالى كافي له لم يقعد عن التعلق بالأسباب ولم يغفل عن تخطيط العمل وتنظيمه كما يتضح ذلك من الحكايات التالية:

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجر مستخفياً محتاطاً لنفسه ولم يطلع أمر الهجرة على أحد إلا على علي و أبي بكر و آل أبي بكر رضوان الله عليهم أجمعين ، على حين أن عمر رضي الله عنه قام وسط الجماهير حين أراد أن يهاجر إلى المدينة وهو يتحدى المشركين ويهددهم دون أي خوف أو وجل ! فهل كان عمر رضي الله عنه أشد جرأة و إيماناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ! كلا ! ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مشرع وجميع

<sup>١</sup> الرحيق المختوم ص ١٥٦

تصرفاته المتعلقة بالدين تعد تشريعاً على عكس ما هو الأمر مع عمر رضي الله عنه، فإنه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتصرفه يعد شخصياً لا حجة تشريعية فيه، فله كأبي مسلم أن يتخير لنفسه من الطرق والوسائل ما يحلو له وما يتفق مع إيمانه.

فلو أن الرسول صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعل عمر رضي الله عنه لحسب الناس أن هذا هو الواجب، وأنه لا يجوز أخذ الحيلة والحذر والتخفي عند الخوف مع أن الله أقام شريعته في الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها. فالرسول نفسه مع علمه بأن الله تعالى يعصمه من الناس، وأن ربه كافيه، لم يقعد عن التعلق بالأسباب ولم يغفل عن تخطيط الخطة وتنظيم السير، فنراه يختار آمن رقيق وأحسن مركب وأعرف دليل وأحفظ طريق وأغرب أسلوب وأليق وقت! <sup>١</sup>

ومما يشير إلى عبقرية الرسول في التخطيط والتفكير أنه صلى الله عليه وسلم ومع أبو بكر رضي الله عنه في السير اتجه إلى جنوب مكة نحو اليمن مع أن المدينة في شمالها، حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور، وكان ذلك لما علم أن قريشا ستجتهد في الطلب وأن أنظارهم سوف تتجه تماماً إلى طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالاً. وفي ذلك تمويه على المشركين الذين يتوقعون أن يتجه النبي صلى الله عليه وسلم شمالاً إلى المدينة دروس التضحية والتقديم تعتبر من أبرز ما نجد في هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كما يبدو مما يلي:

فهذا أبو بكر رضي الله عنه يلقنا دروساً قيمة في تضحية النفس والنفيس لصالح الدين ورسوله. فإنه خرج حين خرج مع الرسول وهو يحمل جميع ماله معه - وهو خمسة أو ستة آلاف درهم - ولم يترك لأهله شيئاً <sup>٢</sup>. إنه هو نفسه الذي يقول للرسول حين انتهيا إلى غار ثور: والله لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك. فدخل فكسحه ثم بعد ذلك طلب من الرسول الدخول، لأنه علم أنه إن هلك فغيره كثير، وأما إذا هلك الرسول هلك الأمة. وكان من أجل ذلك يمشي مرة أمام الرسول خوفاً من أن يلحق به من أمامه رصد أو طلب، وأخرى خلفه خوفاً منهما من وراء.

<sup>١</sup> فقه السيرة النبوية للبوطي ص ١٤٠

<sup>٢</sup> فقه السيرة النبوية للبوطي ١٣٣

وهذا علي كرم الله وجهه يبببت في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفتديه بنفسه ، وهو يعلم أن قريشا مصممة على قتل رسول الله . وعلى الرغم من إيذاءاتها إنه كرم الله وجهه لم يخبرهم بشيء من أخبار الرسول وصاحبه .

وإن ترك المهاجرين لديارهم وأموالهم ووطنهم وأولادهم وتقدم الأنصار بما عندهم و تقسيمهم ما لديهم من الأموال والأزواج لإخوانهم المهاجرين الذين لا يملكون إلا الإيمان بالله ورسوله أيضا يصوران أمامنا تصاوير التضحية الجليلة .

فالهجرة تعلمنا كيف تكون المعاناة وكيف تكون التضحيات وكيف تمتحن العزائم ، وتعلمنا ما تنتهي إليه حياة المؤمنين من نصر وعز و قوة . فما أحرى بنا اليوم أن نستفيد من هذه الدروس عبرا حتى نستطيع مواجهة ما نلقى من صعاب واثقين أن نصر الله قريب من المؤمنين المخلصين !



## في المدينة المنورة

عبدالله الفيضي الويلمي

فرح المسلمون بقدوم رسول الله ﷺ فرحا شديدا. يقول البراء بن عازب (ر): فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإمام يقطن: قدم رسول الله ﷺ (بخاري).

واستقبل النبي ﷺ وصاحبه أبا بكر (ر) زهاء خمسمائة من الأنصار، وكبروا فرحا بقدومه، والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر! جاء رسول الله، الله أكبر! جاء محمد، الله أكبر! جاء محمد، الله أكبر! جاء رسول الله. وبنات الأنصار ينشدن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

بركت ناقة الرسول ﷺ أمام دار أبي أيوب الأنصاري على مكان فيه باب المسجد النبوي اليوم. أقام الرسول ﷺ عند أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر. غير النبي ﷺ اسم هذه المدينة من يثرب إلى المدينة.

### بناء المسجد

عقب الوصول إلى المدينة اهتم النبي ﷺ ببناء المسجد في مبرك ناقته. وكان مربدا ليتيمين، فابتاعه النبي ﷺ منهما وأعطى أبو أيوب الأنصاري ثمنه. وكان النبي ﷺ يعمل معهم ينقل اللبن ويقول:

اللهم لاخير إلا خير الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وكان هذا المسجد في غاية البساطة، عضادتا الباب من الحجارة وسقفه بالجريد وعمده من جذوع النخل، لا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا القليل، وله ثلاثة أبواب، وقبلته إلى البيت المقدس. وبني بجانب المسجد حجرات أزواجه ﷺ.

### الإخاء الإسلامي

أخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار على المساواة والحق والتوارث بعد الموت. وكان الأنصار يؤثرون المهاجرين على أنفسهم حتى يقول الأنصاري للمهاجر: انظر شطر مالي فخذ، وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها، ويقول المهاجر: بارك الله لك في أهلك ومالك، ودلني على السوق. نوّه الله الأنصار على هذا الإخاء الإسلامي الفريد حيث يقول: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

### اليهود

كانت المدينة ذات ديانات وثقافات ومجتمعات شتى. فعاهد النبي ﷺ اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم. وجاء في هذا العهد: إنه من تبعنا من يهود فإن له النصره والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وإنه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن قبائل يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم، إن بينهم النصر على ما حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وإن بينهم النصر على دهم يثرب" (سيرة ابن هشام ١/ ٥٠٣-٥٠٤).

كان النبي ﷺ يعامل اليهود بالتسامح والعمو والمواساة. روي أن غلاما لابن عباس (ر) ذبح شاة فقال له ابن عباس: لا تنس جارنا اليهودي. ثم كررها حتى قال له الغلام: كم تقول هذا؟ فقال: إن النبي ﷺ قد أوصانا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه. وكان يعامل اليهود بالبيع والرهن وقد توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير ما وجد ما يفك به.

### الغزوات

أذن الله تعالى للرسول ﷺ بالقتال بعد الهجرة بعد أن تحمل أشد أنواع التعذيب طيلة سنوات حتى اضطر إلى الهجرة إثر المؤامرة على قتاله. يقول تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (سورة الحج). يقول الشيخ محمد الخضري بك: وصار قتال رسول الله ﷺ للأعداء على هذه المبادئ الآتية:

١. اعتبار مشركي قريش محاربين لأنهم بدأوا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم.
٢. متى رئي من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل.
٣. متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشا قوتلت.
٤. كل من بدأ بعبادة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل.
٥. كل من أسلم فقد عصم دمه وماله.

وكان النبي ﷺ يوصي الجيش عند الوداع ويقول: أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا بصومعة ولا تقطعوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء.

يبلغ عدد الغزوات النبوية سبعا وعشرين، وعدد البعوث والسرايا التي لم يكن في كلها قتال ستين. ومن الجدير بالذكر أن عدد القتلى من الفريقين ١٠١٨ قتيلا فقط. يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي: كان هذه الحروب مؤسسة على الأصلين القرآنيين الحكيمين (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)، موفرة على النوع الإنساني والمجتمع البشري قدرا كبيرا من الوقت والجهد في تغيير الأموال ودرء الأخطار. وكانت خاضعة لأداب خلقية وتعليمات رحيمة جعلتها أشبه بعملية التأديب منها بعملية التعذيب. أما بالنسبة إلى نجاح العملية وسرعتها فقد استمر التوسع بنسبة ٢٧٤ ميلا مربعا في ظرف عشر سنوات ولم يخسر المسلمون إلا بنسبة شخص واحد في الشهر، وكان أقصى خسائر العدو في النفوس ١٥٠ شخصا. فلما اكتملت السنوات العشر خضع أكثر من مليون ميل مربع للحكم الإسلامي. ( السيرة النبوية ٢٨٧ - ٢٨٨ ).

#### الحوادث الهامة في المدينة

الحوادث	العام الهجري
بناء المسجد النبوي	١
فرض صوم رمضان ، غزوة بدر ، تحويل القبلة ، فرض زكاة	٢

المال وزكاة الفطر، صلاة العيد، زواج علي بفاطمة.	
غزوة أحد، وتحريم الخمر.	٣
غزوة بني نضير	٤
غزوة بني مصطلق، غزوة الخندق، غزوة بني قريظ، نزول آية الحجاب، فرض الحج.	٥
غزوة الحديبية، صلح الحديبية، مكاتبة الملوك.	٦
غزوة خيبر، إسلام خالد بن الوليد، عمرة القضاء.	٧
غزوة مؤتة، فتح مكة، غزوة حنين، غزوة الطائف.	٨
غزوة تبوك.	٩
حجة الوداع، قدوم الوفود.	١٠
وفاة الرسول ﷺ .	١١
غزوة بني نضير	٤
غزوة بني مصطلق، غزوة الخندق، غزوة بني قريظ، نزول آية الحجاب، فرض الحج.	٥
غزوة الحديبية، صلح الحديبية، مكاتبة الملوك.	٦
غزوة خيبر، إسلام خالد بن الوليد، عمرة القضاء.	٧
غزوة مؤتة، فتح مكة، غزوة حنين، غزوة الطائف.	٨
غزوة تبوك.	٩
حجة الوداع، قدوم الوفود.	١٠
وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .	١١





## وداع الرسول صلى الله عليه وسلم

عبد الغفور القاسمي<sup>١</sup>

## حجة الوداع

إن حجة الوداع لها الأهمية البالغة في تاريخ الإسلام، لأنها الحج الواجب في حقه ﷺ . و سفره ﷺ هذا وأعماله أثناء سفره من حين خروجه إلى أن يرجع إلى المدينة مرسوم ومنضبط في كتب الحديث والتاريخ، حتى إن ابن عمر (ر) يرافقه في سفره ويقتفي أثره ويسجل كل أعماله مثل الصحفيين المتبعين للزعماء في العصر الحديث.

قال ابن إسحاق: ولما تم له ﷺ الأمر أراد أن يحج، ولم يحج ﷺ بعد الهجرة سواها. ولم ينضبط عدد حجاته قبل الهجرة، ولكن كان نفلاً، إذ فرض الحج كان في السنة السادسة. تجهز للحج في السنة العاشرة من الهجرة، وخرج رسول الله ﷺ مع أصحابه للخامس والعشرين من ذي القعدة .

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد عن عائشة قالت: لا يذكر ولا يذكر الناس إلا الحج حتى إذا كان يسرف وقد ساق رسول الله ﷺ معه الهدى وأشرف الناس، أمر الناس أن يحلوا بعمره، إلا من ساق الهدى، قالت: وحضت ذلك اليوم، فدخل عليّ وأنا أبكي، فقال: ما لك يا عائشة؟ لعلك نفست؟ قالت: قلت: نعم، والله لو ددت أنّي لم أخرج معكم عامي في هذا السفر، فقال: لا تقولن ذلك، فإنك تقضين كل ما يقضي الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت، قالت: ودخل رسول الله ﷺ مكة، فحل كل من كان لا هدى معه، وحل نسائه بعمره، فلما كان يوم النحر أتيت بلحم بقر كثير، فطرح في بيتي، فقلت: ما هذا؟ قالوا: ذبح رسول الله ﷺ عن نسائه البقر، حتى إذا كانت ليلة الحصبه، بعث بي رسول الله ﷺ مع أخي عبد الرحمن بن أبي بكر فأعمرني من التنعيم، مكان عمرتي التي فاتتني.

<sup>١</sup> . عميد مركز الثقافة الإسلامية، كندور، ملابرم.

وقال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ ، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، خطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل الربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني لبيث، فقتلته هذيل، فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية ، أما بعد.....

أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكن أن يطاع في ما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم ، فاذروه على دينكم ، أيها الناس: (إِنَّمَا التَّسْبِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ) ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليه، ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت ، وقد تركت فيكم إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بينا كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت ؟

فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد .

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن زبير، عن أبيه عباد قال: كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة، ربيعة بن أمية بن خلف، قال: يقول

له رسول الله ﷺ: قل يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ يقول: هلا تدرون أي شهر هذا؟ فيقول لهم، فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا. ثم يقول: قل: يا أيها الناس... إن رسول الله ﷺ يقول: هل تدرون أي بلد هذا؟ قال: فيصرخ به. قال: فيقولون: البلد الحرام. قال: فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا. قال: ثم يقول: قل: يا أيها الناس... إن رسول الله ﷺ يقول: هل تدرون أي يوم هذا؟ قال: فيقول لهم، فيقولون: يوم الحج الأكبر. قال: فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا.

ويقال لهذه الحجة: حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لأنه ﷺ ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، وسميت حجة الإسلام لأنه ﷺ لم يحج من المدينة غيرها، ولكن حج قبل الهجرة مرات قبل النبوة وبعدها.

إن في حجة الوداع وفي خطبته التاريخية وتصريحاته الرسمية وإعلاناته الهامة دروسا وعبرا للأمة الإسلامية إلى يوم القيامة. وهذه الإعلانات والدروس يلقيها النبي صلعم في عصر مظلم وأمام أمة أمية. وإذا فكرنا غورها وعمقها بئر منها العقول، لأن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وغيرها من الألفاظ المعبرة في القرون العصرية ألفاظ مهملة لا تفي للإنسان حقه ولا للمرأة حقوقها. ولكن تصريحاته وإعلاناته كلها تطبيقية ومثالية استفاد منها العالم إلى وقتنا هذا.

أكد النبي ﷺ في كلمته التاريخية حقوق المرأة وعفتها وطهارتها. وليس حقوقها في حجز المقاعد في البرلمان ولا بترأسها في مجالس القرويات والبلديات. وفي الحقيقة هذه المناصب حملة ضدها واستغلال لدينها ومروتها، وإنما يتنبه العالم ويصرخ الزعماء السياسيون بعدما وقعت فريسة للمستغلين. أعادنا الله من رئاسة النسوان.

### الآونة الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

إذا تم الأمر يبدو فيه النقص. وكل شيء يبدو صغيرا وضعيفا ثم يكبر ويعظم تدريجيا، إذا كبر أخذ في الزوال. وكذا الإسلام بدى غريبا، وعندما دخل رسول الله ﷺ المدينة أصبح نوره ساطعا، وفي خلال عشر سنين أحرز الإسلام تقدما ملموسا.

ولهذا ولواقعة حجة الوداع ولنزول (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) وغير ذلك تيقن النبي ﷺ بقرب وفاته، لأن النبي ﷺ أدى مسؤولية التبليغ بأكمل وجه وأتمه، وأدى رسالته التي أرسل لأدائها. فكان ﷺ في أهبة واستعداد للوداع كما يبدو من كتب الحديث والسير.

وقال أبو مويهبة مولى رسول الله ﷺ: أيقظني رسول الله ﷺ ليلة، وقال: إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي، فانطلقت معه فسلم عليهم. ثم قال: ليهنأكم ما أصبحتم فيه، قد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى. ثم قال: قد أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد بها ثم الجنة، وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي فاخترت لقاء ربي. ثم استغفر لأهل البقيع. ثم انصرف فبدئ بمرضه الذي قبض فيه.

قالت عائشة: فلما رجع من البقيع وجدني وأنا أجد صداعا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه! قال: بل أنا والله يا عائشة وا رأساه! ثم قال: ما ضرك لو مت قبلي فممت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ فقلت: كأني بك - والله لو فعلت ذلك - فرجعت إلى بيتي فعرست ببعض نسائك فتبسم تتام به وجعه، وتمرض في بيتي فخرج منه يوما بين رجلين، أحدهما فضل بن العباس، والآخر علي. قال الفضل: فأخرجته حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد بالناس. فاجتمعوا إليه فحمد الله، وكان أول ما تكلم به النبي ﷺ أن صلى على أصحاب أحد فأكثر فاستغفر لهم ثم قال:

أيها الناس ان قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخش الشحاء من قبلي فإنها ليست من شأني. ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقا إن كان له، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مغن حتى أقوم فيكم مرارا.

ثم نزل صلى الظهر ثم رجع إلى المنبر فعاد لمقالته الأولى، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم فأعطاه عوضها ثم قال: أيها الناس من كان عنده شيء فليؤد، ولا يقل فضوح الدنيا، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة. ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال: إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده. فبكى أبو بكر وقال: فدينك بأنفسنا وآبائنا. فقال رسول الله ﷺ: لا ييقن في المساجد باب إلا باب أبي بكر، فإني لا أعلم أحدا أفضل في الصحبة عندي منه، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام. ثم أوصى بالأنصار فقال: يا معشر المهاجرين أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد، والأنصار عييتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم.

قال ابن إسحاق: وقال الزهري: حدثني أنس بن مالك: أنه لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسول الله ﷺ خرج إلى الناس، وهم يصلون الصبح فرفع الستر وفتح الباب فخرج رسول الله ﷺ فقام على باب عائشة، وكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه فرحا به، فتفرحوا فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم. قال: فتبسم رسول الله ﷺ سرورا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم. وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة من تلك الساعة. قال: ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أخرج من وجعه.

قالت عائشة: وكنت أسمع رسول الله ﷺ يقول كثيرا: إن الله لم يقبض نبيا حتى يخيره. قالت: فلما احتضر كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول: بل الرفيق الأعلى. قالت: قلت: إذا والله لا يختارنا، وعلمت أنه تخير.

قالت عائشة رضي الله عنها: رأيت رسول الله ﷺ وهو يموت وعنده قدح فيه ماء يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: اللهم أعني على سكرات الموت. قال: ثم دخل بعض آل أبي بكر وفي يده سواك فنظر إليه نظرا عرفت أنه يريد، فأخذته فلينته ثم ناولته إياه فاستن به كأشد ما رأيت يستن بسواك قبله، ثم وضعه ثم ثقل في حجري. قالت: فذهبت أنظر في وجهه وإذا بصره قد شخص، وهو يقول: بل الرفيق الأعلى. فقبض. قالت: توفي وهو بين سحري ونحري، فمن سفهي وحادثة سني أن رسول الله ﷺ قبض في حجري، فوضعت رأسه على وسادة وقمت أقدم على النساء وأضرب وجهي.

ابتدأ برسول الله ﷺ مرضه أواخر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة في بيت زينب بنت جحش. وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه في بيت ميمونة رضي الله عنها فجمع نسائه فاستأذنهن أن يمرض في بيت عائشة، وتوفي يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول على القول المشهور.

ولما اشتد برسول الله ﷺ وجعه ونزل به الموت جعل يأخذ الماء بيده ويجعله على وجهه ويقول: واكرباه. فتقول فاطمة: واكربي لكربي يا أبتني. فيقول رسول الله ﷺ: لا كرب على أبيك بعد اليوم. فلما رأى شدة جزعها استندناها وسارها فبكت. ثم سارها الثانية فضحكت. فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عائشة عن ذلك، قالت: أخبرني أنه ميت فبكيت، ثم أخبرني أنني أول أهله لحوقابه فضحكت. وروي عنها أنها قالت: ثم سارني الثانية فأخبرني أنني سيدة نساء أهل الجنة فضحكت. وكان موته يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول. ودفن من الغد نصف النهار.

ولما توفي كان أبو بكر بمنزله بالسنة وعمر حاضر فلما توفي قام عمر فقال: إن رجالاتنا المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله ﷺ فليقطعن أبدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات. وأقبل أبو بكر، وعمر يكلم الناس ولم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة. فكشف عن وجهه، ثم قبله وقال: بأبي أنت وأمي طيب حيا وميتا، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد متها. ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس، فأمره بالسكوت فأبى إلا أن يكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس. فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم قال: ثم تلا هذه الآية (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) قال: فوالله لكان الناس ما سمعوها إلا منه! قال عمر: فوالله ما هو إلا إذ سمعتها فعرفت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي، وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد مات.

إن وفاة رسول الله ﷺ من الحوادث التي تفجع منها القلوب. ولكن في مرض موته وفي وفاته وفي الوصايا اللاتي أوصى بها رسول الله ﷺ في آخر حياته عبرة وعظة للأمة المسلمة. فعن أنس رضي الله عنه: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم، حتى جعل يغرغر بها في صدره.

وعلىنا أن نعتبر من وصاياه الأخيرة. وكان أهم أمره الصلاة حتى في حالة سكرات الموت. ولكن الناس اليوم متساهلون فيها. والمصلون أيضا لا يعتنون بالجماعة. وكذا رعاية المملوك الذي في أيدينا، والخدم والعمال. وكذا رغبته ﷺ في إنقاذه السنة حتى استاك جيدا في آخر رمقه، والتحق بالملا الأعلى.

جعلنا الله ممن يتبع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

### المراجع

- |                     |                                     |
|---------------------|-------------------------------------|
| الكامل في التاريخ - | ابن كثير الجزري                     |
| عندئذ بكى النبي -   | خالد بن الحسين                      |
| البداية والنهاية -  | ابن كثير الدمشقي                    |
| السيرة النبوية -    | أبو محمد عبد الملك بن هشام المسافري |

